تقـــديم

رحّبت كل الترحيب بالدعوة إلى تقديم هذه القصص التى نقلها إلى العربية من الأدب الروسى الزاخر بالقصص فقيد الأدب العربى الـكبير الأستاذ محمد السباعى رحمه الله .

منذ توفى هذا الصديق النابغة ونحن نفـكر فى قضاء حقه بشىء من الذكر والتأبين ، وكان صديقنا الأستاذ المازنى يوالى التفكير فى ذلك ويمهد له أسبابه . فعلم أن الوفاء للفقيد العزيز قد يوجب علينا إرجاء ذلك الجزاء الضئيل فى جانب فضله على أدب مصر الحديث وأدب العربية بأسرها ، وإنه وايم الحق لمن عجائب المقادير . إلا أنه ظن صادق وتقدير لا غبار عليه لأننا نحن أصدقاء السباعى والعارفين بشؤون أدبه وحياته كنا فى زمن من الأزمان معارضين أشداء المعارضة ، وكانت لأسرة الفقيد مطالب عند ولاة الأمر لعلهم لا يعطفون عليها كل العطف إذا قام المعارضون بتأبين عميد الأسرة الراحل والإشادة بفضله ، فمن الوفاء لذكرى الفقيد أن لا نهدف أسرته لما تخشاه ، وإن أسرفنا فى الظن والتقدير .

فرحبت بالدعوة إلى تقديم هذا الأثر القيم من آثاره الـكثيرة ، لأنه يعود بنا إلى أوائل عهدنا بالـكتابة فى الصحافة : إلى تلك الأيام التى كان

فيها رحمه الله يكتب فى « الجريدة » وكنت أكتب فى « الدستور »، وكنا نتلاقى الحين بعد الحين لأسأله ويسألنى عما نقرأ وما ننوى أن نكتب وأستمع إلى طرائفه وفكاهاته التى يرتجلها ولا ينضب معينه منها . فنعمت العودة تلك العودة ونعمت الأيام هاتيك الأيام.

ومما أستبقيه من ذكريات ذلك العهد النضر أننى زرت حلوان — وكان يسكنها يومئذ — فسألت عنه فلم يعرفه أحد إلا حين وصفته لبعض الباعة « بأنه الرجل الذى يتأبط الكتب حيث سار » . فقال : نعم . نعم . عرفته . . ! وصحبنى إلى منزله فوجدته فيه ، ووجدت فى حجرة الاستقبال كتباً وعوداً وقانوناً موسيقياً ، وهو يوقع بعض الألحان و يناقش فيها بعض أبناء الصناعة . فقلت له : الآن أعرف سر غرامك بالإيقاع والجرس المقبول فى فواصل الكلام . فقال : إننى لا أتمنى شيئاً كما أتمنى ما يسميه الموسيقيون « إصبعاً حلوة » فى تناول القلم وتناول الريشة ، لأن تعبيرهم هذا « بالإصبع الحلوة » هو خير من تعبير البلغاء بنفس الشاعر أو الكاتب فى صوغ الأبيات وتنسيق العبارات .

وكان معى ديوان « هينى » الشاعر الألمانى الساخر ومجموعة من الحكايات لدستيفسكى الكاتب الروسى العظيم . فأخذ يقلب فيها لحظة وهو منقطع عن التحدث إلينا . . . فأما « هينى » فلم يبدُ لى فى تلك الجلسة أنه أعجب به كثيراً ، وأما دستيفسكى فقد وافقه وأرضاه ، وقال لى إنه يود لو نقل إلى العربية رواية من رواياته الكبيرة أو الصغيرة ، وإنه يعجب

أن يكون من هؤلاء الروسيين من يبلغ ذلك النبوغ ويجود تلك الإجادة
واستفادت من كلامه أنه على بهذه الناحية الروسية من أدب أوربا في
أواسط القرن التاسع عشر ، ولكنه لا يريد أن يشغله هؤلاء الروس عن
قراءة بيرون وديكنز وولى هنت وهازليت وكارليل ، وكانوا أحب أدباء
الإنجليز إليه .

ودار في خلدى أنه مشغول بهؤلاء الروس لا محالة يوما من الأيام مع
ذلك ، لأنه يعيش في عالم الخواطر والبدوات الذى يعيش فيه أبطال القصص
الروسية ومؤلفوها . فإذا التقى بهم يوما فلن يكون اللقاء إلى فراق .

ولقد تلاقى السباعى وأكبر الأدباء الروسيين في هذه الصحائف الحوافل
بغرائب الشخوص وطرائف التحليل والتمثيل ، ولو كتبها مؤلفوها بالعربية
لما بلغوا بها من الإجادة فوق مبلغ المترجم القدير ، لأنه تمذ من كلامهم
إلى الروح وحفظ له بلاغة التعبير . وإن كان منهم من لم يتحر في تعبيره
فصاحة الأسلوب الأدبى الفحل الذى كان يتحراه رحمه الله .

وليست هذه المقدمة بالتى تتسع للوفاء بحق السباعى في الأدب العربى
الحديث على وجه الإسهاب والتفصيل ، فإنما يتسع لذلك كتاب شامل
لعصره ولمكانه هو من عصره ، وهو في أجل مكان .

ولكننا نجترىء هنا بالإجمال الذى يدل قليله على الكثير ، فنضعه في
مكانه حيث نقول إنه كان طليعة المدرسة الأدبية الحديثة في نهضة الأدب
المصرى التى تجددت منذ أوائل القرن العشرين ، ونعنى بالمدرسة الحديثة

تلك المدرسة التى فتحت للشرقيين أبواب الثقافة الإنجليزية ووجهتهم إلى مقاييس تلك الثقافة النادرة بين الثقافات الإنسانية ، فلم يسبق السباعى أحد إلى التعريف بمزايا الشعر الإنجليزى ومحاسن المقالة الإنجليزية ، ولا سيما مقالات التصوير الخلقى والنقد الحصيف والسبحات الخيالية التى ترى على أحسنها فى كلام هازليت ولى هنت وكارليل ، وكل منهم مدرسة وحده فى عالم المنثور .

ولا ريب أن التعريف بهذه الثقافة كان اتجاهاً جديداً فى آداب الشرقيين ، لأن ثقافات البحر الأبيض المتوسط كانت من نوع الثقافة الشرقية أو من اتجاهها وكان عليها طابعها ولونها مع زيادة أو نقص هنا وهناك فى النصوع والإغراق . أما الثقافة الإنجليزية فهى اتجاه غير الاتجاه وطراز غير الطراز ، وفيها ما يجوز لنا أن نسميه بلقاح الدم الجديد ، وهو اللقاح النافع فى أطوار النهضة والتجديد .

ومما يذكر للسباعى بالحمد والإعجاب أن فتنته بالإنجليزية لم تفتنه عن جمال البلاغة العربية كما فتنت سواه من المترجمين عن تلك اللغة أو عن غيرها من اللغات الأوربية ، فكان حريصاً جد الحرص على متانة الأسلوب وفخولة اللفظ واستبقاء البلاغة الموروثة عن العربية الأولى ، وربما تسهل حيناً فتخلل مقاله بكلمة دارجة أو عبارة شائعة لأنه يضاهى بها ما يقابلها فى الكلام المنقول ، ولكنه فى أعم حالاته كان يؤثر التصرف فى الترجمة لمؤاتاة الجرس العربى والديباجة الشريفة ، وكانت كلمة « شرف

الديباجة » قداسته وفكاهته فى آن . . . فكانت قداسته لأنه يدين بها ويؤثرها على كل ما عداها ، وكانت فكاهته لأنه كثيراً ما كان يلهج بها فى مزاحه مع صديقنا الأديب المبين عبد الرحمن البرقوقى صاحب البيان رحمه الله . إذ كان السيد البرقوقى يرددها حتى سمى بها ، فلم يكن السباعى فى ندائه إياه يدعوه بغير « الشيخ شرف » حتى غلبت عليه !

ولو أن أديباً فى مكان أديبنا الكبير لهج بالثقافة الأوربية لكان وشيكا أن يجور على اللفظ العربى فى سبيل المعانى المحببة إليه ، فكذلك يفعل طلائع المدارس المقتبسة من الأمم الأخرى فى كثير من الأحوال ، ولكنه أنصف هواه الروحى وأنصف لسانه العربى وتراثه الشرقى القديم ، فإذا قرأ العربى هذه الصحائف فهو يفيد من لغة العرب كما يفيد من معانى فطاحل الروس المخلدين ، وهذه هى الترجمة التى تضيف إلى ثروة العقول وثروة اللغات ؟

عباس محمود العقاد